Oriental College Magazine, Vol.99, No. 04, Serial No. 374, 2024

محمود أبو الوفاء: أحد الشعراء الكبار في مصر الحديثة

محمد خورشيد الحسن الرضوي

الأستاذ الفخري، الجامعة الكلية الحكومية، لاهور

عمر فاروق

المحاضر في اللغة العربية سابقاً، الجامعة الكلية الحكومية، لاهور

Mehmood Abu Al-Wafa
A Great Egyptian Poet of Modern Era

Muhammad Khurshid ul Hasan Rizvi, PhD
Professor Emeritus
Department of Arabic, GCU, Lahore

Umar Farooq
Ex-Lecturer in Arabic
International Islamic University, Islamabad

Abstract

This is the Arabic rendition of Dr. Khurshid Rizvi's Urdu article about one of the great poets of modern Egypt *Mehmood Abul Wafa* (1900-1979), whose poems were included in an anthology of *Modern Arabic Poetry* chosen as a full-length subject for Master's in Arabic at the Punjab University Oriental College, Lahore when Dr Rizvi was doing M.A. in Arabic. The poem *Aashiqatul Qamar* (Moon Lover) by *Mehmood Abul Wafa* enchanted Dr Rizvi with its poetic craft and captivating style of rhyme and rhythm, as it absorbed him in its splendid pursuit of expressing meaningful thought. Years after when Dr. Rizvi earned an excellent teaching career to his credit, and befitted a member of the Syllabus Committee, he was entrusted the task of selecting modern poetry for B. A. in Arabic at the University of the Punjab. He shared with the students the meaningful and superlative pieces of poetry by adding in *Aashiqatul Qamar* with other select poems from the contemporary Arabic literature. This article comprises a concise history of *Mehmood Abul Wafa* and his poetic career, as it consists of a serious study of a number of his poems to highlight his beliefs and tendencies, as well as his poetic thoughts and notions. The study comes up with the

fact that *Abul Wafa* is not a philosopher, for believing in might and power. Rather, he clearly asserts that he does not follow a certain school of thought. Instead, he adapts to his own mood, style and thinking. Yet, he does not reject other thoughts and ideologies which he benefits from in an open manner. The article presents plenty of specimens for different moods of the poet and various shades of his poetry.

Keywords:
Mehmood Abul Wafa, Khurshid Rizvi, Egyptian Poets, Modern Arabic Poetry, Yahyel Hub, Fifth Season Human Being.

سجلت كطالب نظامي بمرحلة الماجستير في الكلية الشرقية بجامعة البنجاب في لاهور بعد أن اجتزت امتحان البكالوريوس عام ١٩٥٩م في الكلية الحكومية بساهيوال، إحدى المحافظات الإقليمية بالبنجاب. كان من ضمن المقررات المنهجية مادة "الأدب العربي الحديث" الذي درسنا في القسم النثري منها الجزء الأول من السيرة الذاتية لطه حسين **الأيام**. أما الشعر فدرسنا فيه ما اختاره البروفيسور آربري من قصائد مجموعة في ***Modern-Arabic-Poetry*** (وعنوانه بالعربية: **أزهار الأشعار**) مع ترجمة إنجليزية للقصائد المختارة. ومن القصائد التي تركت في نفسي أثرا بالغا أكثر من غيرها قصيدة "عاشقة القمر" للشاعر المصري محمود أبي الوفاء الذي لم يكن معروفا عندنا وقتئذ. أما موضوع القصيدة فهو سير متصل دؤوب خلف القمر تقوم به نجمة كبيرة أسماها الشاعر عاشقة القمر. تتكون القصيدة من الألفاظ السهلة البسيطة المأخوذة من الحديث اليومي، ولكنها مؤثرةٌ في النفوس ومعبرةٌ موحية، حاملةً بصمة الإبداع الذي خلق جوا من الجمال والحزن معا. فانطبعت القصيدة في قلبي بإيقاعها ونغمها بحيث لم أنسها في نشوتها الباكرة بعد مضي زمن طويل. وبعد أن اشتغلت بالتدريس وتقدمت في مراتب تدريسية مختلفة، وأصبحت ذا رأي في المقررات المنهجية، خُوِّل إلي أمر اختيار القصائد بالمنهج العربي المقرر في البكالوريوس بجامعة البنجاب. فأردت حينئذ مشاركة الأجيال القادمة في تلك المتعة الأدبية والتذوق الشعري الحاصل من قراءة "عاشقة القمر" بضمها إلى قصائد أخرى مقررة في المنهج.

لم تكن في زمننا تسهيلات البريد الإليكتروني ولا وتس-آب متوفرة، حتى ولم يوجد عندنا التصوير الفوتوغرافي آنئذ. وكان من الصعوبة بمكان أن نحصل على كتاب بسهولة للتوفر على معلومات ضرورية. أما أن نتمكن من الاتصال بشاعر أو أديب عربي من الكتاب العرب الأحياء في الممالك والدول العربية المعاصرة، فكان أمرا لم يكن ليتيسر إطلاقا. والذي هو مأسوف له في حالتنا خاصة أن شاعر "عاشقة القمر" كان حيا يرزق في مصر حينما كنا نقرأ في باكستان بعض قصائده المختارة في منهجنا المقرر، وبقي حيا كذلك حتى بعد مضي سنوات عشر منذ ذلك الحين.

أما الآن، وقد توفرت المعلومات عبر الإنترنت بسهولة وبكثرة حول أي موضوع من المواضيع وفي طرفة عين، فتمكنت من الاطلاع على ما كنت أنشده مما يتعلق بالأخبار عن حياة محمود أبي الوفاء شخصا وشاعرا، وأمضيت في صحبته ما شاء الله أن أمضي من الوقت المفيد الممتع. وبعدها أردت مشاركة الآخرين في حصيلة بحثي وقراءتي في الموضوع.

هناك قرية في محافظة الدقهلية بمركز أجا في مصر مسماة الديرس، وهي شهيرة بمهنة زخرفة الزجاج ونمنمته في أيامنا هذه بحيث أصبح قاطنوها ميسوري الحال في رغادة العيش ورفاهيته بالتكسب من هذه المهنة الكريمة. ولكن الأمر لم يكن كذلك في حوالي عام ١٩٠٠م عندما ولد محمود أبو الوفاء، إذ لم يكن البال ناعما برخاء العيش في هذه القرية النائية المنطوية على نوع من الغموض. وهناك مرقد في القرية ممرور عليه باعتقاد روحي من الناس لشيخ تقي ورع معروف بالعارف بالله السيد عبدالسميع أبي الوفاء. ودُعي أولاد هذا الشيخ بـ(أبي الوفاء) كلقب الأسرة.

كانت عائلة السيد الشريف محمد مصطفى أبي الوفاء لم تكن سعيدة منعمة، وإن كانت محترمة مكرمة بسبب كونها منحدرة من سلالة الشيخ عبدالسميع العارف بالله. رزق محمد مصطفى هذا بابنين محمود أبي الوفاء ومأمون أبي الوفاء، وبابنتين عديلة وسكينة.(١) أما هنا فنتكلم عن شخصية ابنه الأكبر محمود أبي الوفاء وشعره.

كان محمود ابن عشر سنوات عندما شعر بالألم الحاد الشديد في رجله اليسرى.(٢) ومن حسن الحظ أنه كانت هناك رابطة من المودة والإخاء بين أبيه محمد مصطفى والطبيب الجراح الشهير في وقته علي باشا إبراهيم الذي كان معينا عندئذ في مستشفى قصر العيني بمنيل الروضة في القاهرة. فأُرسل محمود إلى هذا المستشفى للعلاج تحت رعاية الدكتور علي باشا، غير أن المعالجة بالأدوية، بما فيها من حقن، لم تنجح البتة. فقرروا بتر رجله فوق الركبة إلى منتصف الفخذ. وكان من سوء الطالع أنه تُوفي محمد مصطفى في غضون تلك الأيام، وقيل إن المنية وافته في اليوم نفسه الذي أُجريت فيه عملية القطع لرِجْل ابنه.(٣) فاشتد الأمر وتفاقم الخطب لمحمود، إذ صُدم صدمة مزدوجة: إصابة مكروه ببتر رجله ووقوع كارثة بفقد أبيه؛ ذهاب نعمة الرِّجْل وفقدان عطف الأب. بإمكاننا أن ندرك مدى ما يكون قد شعر وأحس به الشاعر الحساس محمود أبو الوفاء من وطأة هذه المأساة، حيث بقي وحيدا فريدا يتكبد العناء ويواجه الخطب: وما أكبر العناء وما أعظم الخطب!

سيرة ابتدائية من حياة محمود أبي الوفاء ما زالت في طي الخفاء. قيل إنه ولد في سنة ١٩٠٠م أو في سنة تالية. وقيل إنه باشر تعليمه الابتدائي في مدرسة قريته، ولكنه تركها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وانتقل إلى راس البر، مدينة في محافظة دمياط، وبدأ يعمل في بعض مقاهي هذه المدينة. ونظرا لأنه كان يعتمد على العكازة في مشيته جيئة وذهابا، ولم يكن ذلك سهلا عليه، فعهدوا إليه مسؤولية أمين الصندوق ليشتغل جالسا يتسلم النقود من الزبائن.

وبينما كان يعمل في راس البر بالقرب من دمياط، أراد محمود الالتحاق بمدرسة دينية فيها، ولكنه اضطر إلى ترك الدراسة هناك أيضا، لأن بعض أفكاره ومفاهيم شعره لم تكن لتتلقى بالقبول عند شيوخ المدرسة.(٤)

لم يصل عمره إلى العشرين بعدُ إذ غادر دمياط إلى القاهرة، وأصبح مشاركا في العمل مع أحد القهوجيين البلديين في شارع عبد الخالق ثروت، بحيث جاء نصف المقهى تحت تصرفه، فجعله محطة النشاط الأدبي وموئل الأدباء والشعراء والمثقفين. وقصد خلال ذلك إلى إكمال دراسته في الأزهر الشريف، ولكن الأقدار لم تشأ له بأن يتحين فرصة من كسب العيش اليومي، إذ اشتغل بمهن مؤقتة صغيرة يتنقل بينها صباح مساء: بائع الفول المدمس، بائع السجائر، وسيط أراض زراعية، وكذلك تعهد إقامة الحفلات من وقت لوقت.

وفي عام ١٩٢٧م أقيمت حفلة في مناسبة الاعتراف بإمارة الشعر لأحمد شوقي، وقد أعلنوا ضمنها عن مسابقة شعرية حول شخصية شوقي ومكانة شعره. فقرض أبو الوفاء قصيدة بهذا الشأن وأرسلها إلى لجنة المحكمين التي ضمت إليها شاعرين كبيرين هما حافظ إبراهيم وخليل مطران. حصلت قصيدة أبي الوفاء على المركز الأول في هذه المسابقة، ودُعي لحضور حفلة خاصة لإلقاء قصيدته أمام شوقي ونخبة من الحضور. ولكن، نظرا لمنظره البلدي الساذج وهيئته القروية البسيطة، وبما أنه اعتمد على العكازة الخشبية في مشيته، لم يحب شوقي أن ينادوا محمودا إلى المنصة ليلقي قصيدته التي فاز بها على الآخرين. وقد ذكر محمود نفسه هذا الحدث كالتالي:

> "شوقي أمير الشعراء .. ازدراني عندما رآني أول مرة .. وصغرت في نظره لعرجي .. كنت أرتدي الزي الذي ارتضيته لنفسي، الجلباب والطاقية والبالطو .. والعكازة التي هي ساقي الثانية .. ونفر شوقي من ذلك المنظر السوقي في الحفل الكبير، واستعظم أن يشترك في الحفل شاعر على هذا النحو .. فنفرت منه بدوري وقاطعته بعد أن ألقيت قصيدتي وأفحمته."(٥)

في عام ١٩٣٠م انتشرت سمعة محمود واسعةً وذاع صيته مدوياً بسبب قصيدته "الإيمان" التي نشرت في مجلة المقتطف فنالت قبولا حسنا لدى القراء ولقيت حفاوة بالغة من الكتاب، فنُشرت مكررا في خمس مجلات واحدة بعد أخرى. فدعا رئيس تحرير **المقتطف** الدكتور فؤاد صروف محمودا لينضم إلى هيئة تحرير المجلة، وفوض إليه مهمة العرض للكتب تحت عنوان "مكتبة المقتطف". ورُوي أنه جاءت إليه في غضون تلك الأيام مجموعة شوقي الشعرية باسم **الشوقيات** للعرض والتعليق، فاستقبلها برحابة صدره، وأثنى على شوقي وكال المدائح على شعره من خلال قصائده المجموعة في **الشوقيات**.

وعلى طرف آخر، كان شوقي يحس بالخلجان في قلبه، وقد شعر بنوع من الخجل، منذ أن استصغر في الحفلة التي أقيمت تكريما له شابا بلديا في هيئة ساذجة قادما إلى الحفلة بعكازة عوضا عن

ساقه اليسرى. ففكر في تدارك ما حصل. وعندما أرادت "رابطة الأدب الجديد" الإشادة بأبي الوفاء والتقدير له بإقامة حفلة في تكريمه في حديقة الأزبكية، قال شوقي قصيدة نشرها في الأهرام وأطرى فيها أبا الوفاء، امتدادا لتكريمه والثناء عليه من قبل الرابطة، معترفا ببراعته الأدبية في قرض الشعر، فقال إنه يمشي مستندا إلى العكازة ويخطو خطوات صغيرة، ولكنه قد وسع العالم كله بتخيله الأدبي القوي. هذا، وقد لفتت قصيدة شوقي انتباه السلطات الحكومية إلى محمود وحاله السيئ. كما أن ناشطة مصرية شهيرة في مجال حقوق المرأة هدى الشعراوي، وكانت معجبة بأبي الوفاء ومحبة لشعره، حاولت تحسين وضعه بطلب مساعدة من السلطات. فأصدر رئيس الوزراء إسماعيل صدقي أمرا ببعث أبي الوفاء إلى باريس على نفقة حكومية ليضعوا له ساقا اصطناعية باستخدام المعدات الطبية الحديثة.

أقام محمود في باريس حوالي سنة واحدة. ولما عاد لمصر وجدوه قد انطبع بطابع غربي في لُبسه وقد تركبت ساق اصطناعية مكان ساقه اليسرى المبتورة. لكن خلع هذه الساق المصطنعة وقت النوم وإعادتها مكانها عند النهوض، كان ذلك مما يؤلمه إيلاما شديدا. فعاد إلى ما كان عليه من قبل من استخدام عكازته الخشبية.(٦)

ومن الطريف أنه لما استقر مقامه كشاعر مجيد مفلق، وبدأت قصائده تنشر في الجرائد والمجلات، أخبر بعض الناس أُمَّ محمود في القرية (وكانت امرأة ساذجة وقد فقدت بصرها الآن) بأن ابنها أصبح "شاعرا". فأخذت تبكي وتندب ولدها الأعرج، لأن كلمة "الشاعر" كانت تطلق آنئذ عند العامة على من يقص عليهم قصصا وأساطير في المقاهي للتسرية عنهم؛ والقهوجي، نظرا لما كان يجلب القصاص من بعض الزبائن، يعطيه ثمنا حقيرا عند المساء. فصدمت أم أبي الوفاء بأن ابنها يدور ويتجول من مكان إلى مكان لتكسُّب العيش. وعندما اطلع محمود على هذه الطريفة المضحكة المبكية، ذهب توا إلى أمه في القرية ليزيل سوء الفهم. وقد ذكر محمود نفسه كيفية هذا الاجتماع بأمه قائلا:

"عدت إليها ببدلة أنيقة وطربوش... فتحسست ملابسي وقامتي واطمأنت لهيئتي وقرت نفسها وطابت."(٧)

نُشرت باكورة ما أنتجه محمود من الشعر في شكل ديوان **أنفاس محترقة** سنة ١٩٣٢م، وأحدث ضجة مدوية في الأوساط الأدبية. وقد أهدى محمود ديوانه قائلا: "إلى الذين يشاركونني في الإحساس". وكتب مقدمته رئيس تحرير المقتطف فؤاد صروف الذي لخَّص وصفه لشعر محمود في نهاية المقدمة بقوله:

"فأنت ترى الحياة في هذا الديوان قطرة ندى وشذا وردة وثورة بركان، وإيمانا وبؤسا وأملا وإرادة صلبة وأنفاسا محترقة."(٨)

وقد قام النقاد المشاهير بالعرض لهذا الديوان والتعليق عليه، أمثال مصطفى صادق الرافعي، والعقاد، ومحمد حسين هيكل، ومحمد مندور، وسيد قطب، وغيرهم من الأدباء والنقاد، فاستحسنوا

شعر محمود أبي الوفاء محبذين وأشادوا به مشجعين. أما الدكتور طه حسين فكان تعليقه على ديوان محمود معاديا كل العداء بحيث لم يكن أحد ليتطلع له البتة، إذ قال إن محمودا ليس بشاعر إطلاقا، وإنما هو ينظم الأبيات وفيها أخطاء لغوية نحوية وبلاغية أسلوبية، كما أن هناك مواطن في شعره سقط فيها الوزن وخرج أبو الوفاء من البحور العروضية المعروفة. كذلك لام طه حسين فؤاد صروف معاتبا على استحسانه شعر محمود والثناء عليه.(٩)

وليس من نافلة القول، على نحو ضمني، ذكر واقعة طريفة حدثت لطه حسين في زمن لاحق مع أديبة مصرية شهيرة مي زيادة، إذ دعت طه حسين للقدوم إلى بيتها الذي كان محطة الأدباء وموئل الشعراء وبذلك أصبح صالونا أدبيا للكتاب ليطرحوا ويناقشوا قضايا أدبية وشعرية مختلفة. وكان طه حسين جدَّ كئيب آنذاك بسبب تصاعد العمليات الانتقادية المناهضة له من قبل خصومه في مجال الأدب والنقد. تقول مي زيادة إنها أنشدته بيتا من الشعر تاليا: [من البسيط]

أُرِيْدُ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِيْ أَنْ عَاقَبَتْنِيْ عَلَى بَعْضِ ابْتِسَامَاتِيْ

فأصاب البيت سويداء قلب طه حسين واستهواه، فطرب طربا واستجمله استجمالا، ثم استفسرها عن قائله، فماطلت، ولكنه ألح وأصر، فأخبرته بأنه لمحمود أبي الوفاء. فانطفأ قلب طه حسين يائسا، وطلب منها ألاَّ تذكر هذا الأمر لأحد.(١٠) ومن الطريف أن البيت المذكور يوجد في نفس تلك المجموعة لأبي الوفاء **أنفاس محترقة**، وكان فؤاد صروف قد نقله في مقدمته أيضا.

لم يعش محمود حياة مترفة أو في رغد ورخاء. ولكنه، على الرغم من ذلك، كان عزيز النفس أبيا، فلا يستمر طويلا في العمل بوظائف حكومية خاصةً لأنها تسلب حرية الرجل في الحياة وترغمه على العيش كما لا يحب ولا يرضى. كان يسكن في بيت متواضع في حي شعبي حيث يزوره كبار الشخصيات وعظماء الرجال. ومن هؤلاء الزوار الأمير عبد الله الفيصل الذي أرسل له رداء الشرف كذلك.(١١)

وخلال تنقله بين وظائف مختلفة، حكومية كانت أو خاصة، قام محمود بواجب مذيع في الراديو أيضا، وأذاع أكثر من ثلاثين محاضرة حول شخصيات بارزة في الأدب العربي. وفي أثناء ذلك كتب قصة قصيرة بعنوان "هؤلاء أبنائي". وبما أنه كان مواطنا ناضج العقل واعيا سياسيا، فارتبط ببعض الأحزاب السياسية، وشارك في ثورة عام ١٩١٩م. وكما أخبر ابن أخيه شريف أبو الوفاء، قام محمود في حركة الثورة بإلقاء خطب من منبر الأزهر الشريف، وقد أنشدوا قصائده في المواكب التظاهرية ضد الإنجليز. وخلال عمله بالراديو أراد المدير الإنجليزي أن يتكلم محمود في صالح الإنجليز منحازا لهم ضد الألمان في الحرب العالمية، مستخدما منصب الإشراف على البرامج الأدبية، فرفض أن يفعل ذلك، فسرحوه من الخدمة بفصله من العمل.(١٢)

كان محمود أبو الوفاء عظيم النفس، دمث الخلق، طيب العشرة، خفض الجناح، مسالما للناس، لم تطبعه مرارة الظروف الحياتية بطابعها لتجعل منه شخصا صعب المنال وضيق العطن. وإنما كان، على العكس من ذلك، صاحب خلق عال حاملا قيما راقية في سلوكه مع الناس، فيقابل زواره طلق الوجه باسما على نحو لم يكن اعتياديا محضا. يقول عنه فتحي سعيد:

> "كان يجلس على أريكته في حجرة متواضعة عارية أو تكاد إلا من سرير عتيق ذي أعمدة أربعة وبضعة مقاعد... [كان] طويل القامة عالي الهمة وضيئ الملامح يشع أنسا وراحة وألفة، وكأنك تعرفه منذ زمن بعيد... يفتح لك قلبه للوهلة الأولى ويتفرس فيك بعينين نفاذتين وكأنه يقرأ سطور أعماقك. وكانت جلسته مقصدا للزائرين ومحبي الشعر من الشباب والشيوخ معا... نسمع إليه وقد انطلق يتكلم أو يتلو الأشعار والذكريات بصوت خفيض حبيب واضح النبرات كأنه النبع الذي يفيض ولا يغيض. وكل منا، لفرط حنوه وتعاطفه، يحس بأنه وحده صديقه الأثير."(١٣)

لم ينو محمود أن يتزوج بسبب ما كان به من تعويق وإقعاد، ولما كان فيه من أوضاع اقتصادية مترديه، فلم يحب أن يترك وراءه أطفالا في بؤس وشقاء. فبقي متعزبا طويلا، لكن الظروف الحياتية الضاغطة ألجأته إلى أن يعقد القران على امرأة أسن منه عمرا والتي كانت أما لأربعة أطفال، غير أنه أراد تخطيط العائلة فلم ينجب منها طفلا من سلالته. وقد توفيت هذه الزوجة في حياته فقضى خمس عشرة سنة من سنوات عمره الأخيرة في العُزوبية.(١٤)

وعلى الرغم مما كان يرتضيه محمود لنفسه من الانزواء والخمول، فإن أدبه وشعره لم يبق مخبوءا مغمورا، بل اشتهر اشتهارا في الأوساط الشعرية الأدبية، فذاع صيته وشاع حتى بلغ مسمع الدوائر العليا من السلطات المسئولة، فمُنح وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى من قبل رئيس جمهورية مصر العربية جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٧م، كما نال جائزة الجدارة في الفنون مصحوبةً بألف جنيه مصري عام ١٩٧٧م زمن الرئيس محمد أنور السادات. لكن الوفاة أدركته قبل أن يتسلم هذا المبلغ الذي كانت خطيرا قيمته آنئذ، غير أنه نزل عند رغبته فيما يتعلق بالحصول على السكن بمكان هادئ خارج زحام العمران وكثافة السكان وحيث يزوره الناس من محبيه بسهولة ويسر، كما أراد أن يتزود بالتلفون كذلك ليمكنه الاتصال بالأصدقاء والأحباء، وكان أصبح من الحوائج الضرورية الملحة بعد أن فقد بصره. لكنه لم يسكن إلا بعض أيامه الأخيرة بمنزله الجديد في حي مدينة نصر من أحياء القاهرة الحديثة، إذ ارتحل إلى خالقه في اليوم السادس والعشرين من يناير عام ١٩٧٩م.

نُقل جثمانه بموجب وصيته إلى مسقط رأسه الديرس، ودُفن بجوار جده الأكبر السيد الشريف عارف بالله عبد السميع أبي الوفاء. وقد وهب أخوه الصغير رقعة أرضية لإقامة مبنى على مرقده، والذي شيدوه وزينوا على نفقة شيخ الأزهر. وقد أنشأوا مسجدا بجانبه نَمَوْه إلى محمود أبي الوفاء،

ومتصل بالمسجد هناك مكتبة شخصية لأبي الوفاء حيث وضعوا مؤلفاته كذلك، كما علقوا أوسمة وجوائز حصل عليها الشاعر. وحسبما أوصي محمود نفسه، أثبتوا على لوحة قبره قطعة شعرية من نظمه تقول:(١٥) [من الكامل]

إِذَا ضَمَّ الثَّرَى جَسَدِيْ وَرَاحُوْا وَحَلُّوْنِيْ رَهِيْناً فِي التُّرَابِ
وَحِيْداً مِنْ أَحِبَّائِيْ وَأَهْلِيْ وَمِمَّا قَدْ عَرَفْتُ مِنَ الصِّحَابِ
فَإِنِّيْ سَوْفَ أَلْقَى اللهَ رَبِّيْ بِقَلْبِيْ ثُمَّ حُجَّيْ لِلْكِتَابِ

نشر محمود أبو الوفاء عدة دواوين شعرية مثل: **أنفاس محترقة، أعشاب، أشواق، شعري، أناشيد**، وغيرها. وبعد التعديل والزيادة في القصائد وتنسيقها من جديد، نشرمحمود هذه الدواوين في مجلد واحد بعنوان: **محمود أبو الوفاء: دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه**، وقد ضُمِّن اثنين وعشرين مقالا حول شعره كتبها أعيان الأدب والنقد في زمنه.

وفي هذه الطبعة الشاملة أوضح محمود مشربه الشعري باسم "مذهبي في الشعر"،(١٦) ومفاده أنه لا يتبع مسلكا شعريا معينا، وإنما يمضي على شاكلته في قرض الشعر، وهذا هو مذهبه الذي لا يرفض طرقا شعرية أخرى، وإنما يستجيب لها في مجموعها. يقول إنه استفاد من الشعراء القدماء والجدد، معروفين كانوا أم مغمورين، وانتموا إلى أي مدرسة من المدارس الأدبية الشعرية، مثالية كانت أو كلاسيكية أو رومانسية أو غيرها من وجهات نظر أدبية، فإنه قد اختار من شعرهم وأدبهم ما يتوافق وذوقَه الشعري وينسجم مع وجدانه الأدبي دون أن يصارح بانتمائه إلى مذهب معين من هذه المذاهب الأدبية.

وعنده أن العبرة إنما هي بكون أحد شاعرا أو غيره، فإذا كان شاعرا فإنه حر في اختيار مسلك من المسالك الشعرية وفي اتخاذ قرار فيما يتعلق بالأولويات، شخصية كانت أو عامة. كذلك فإن قضية قدامة اللغة وحداثتها ليست مهمة في نظره، لأن اللغة إنما تكون جديدة وحديثة في الزمن الذي يكتب فيه الشعراء قصائدهم ويفهمها المخاطبون بسهولة أو بقليل من التأني. أما فيما يتعلق بتحديث الشعر وتجديد مساره فإنه لا يحصل بتوظيف الشاعر تعبيرات واستعارات خاصة وعلامات ورموزا معينة في اتباع مدرسة بعينها من المدارس الأدبية، فعلى ذلك يعتقد بأنه قام بتجديد الشعر وبالتالي سوف يُحدث انقلابا لتحسين الأوضاع الفاسدة، فردية كانت أو اجتماعية سياسية. لا... بل إنه من الضروري أولا أن يقوم بتغيير ما يؤمن به الشعب المستعبد من أفكار رديئة بالية لا تصلح لإزالة الأجهزة الحكومية الاستبدادية من أجل إحلال النظام العادل مكانها. إنه لا يحدث ذلك البتة، حسبما رأى محمود، إلا بتغيير الرؤى ووجهات النظر في المقام الأول.

من أساليب وألوان شعرية مختلفة نجدها عند محمود أبي الوفاء لونٌ يركز فيه على تغيير نفسية الإنسان للأفضل وتحويل فكره إلى أن يصبح شاملا للكون جامعا له. وهو لونٌ اختاره محمود لتغيير

وجهات النظر، وقد تحمس له كثيرا، فراودته أمنية هذا التغيير لتربية وتنشئة الشعب وتحويله إلى أن يصير قويا مهيبا وجميلا رائعا في آن، وطيب الأعراق في المحل الأول. ولذلك فإنه يجلل الإنسان ويبجله – مثلما فعل محمد إقبال الشاعر المفكر من شبه القارة – ثم يستحثه على تسخير الكون وعلى أن يجعله متلائما مع الكيان الإنساني وليس معاديا له. وللقوة عنده والقدرة مكانةٌ ممتازة في فكره وفضيلةٌ خاصة عند القيام بالعمل في الحياة. وفي هذا النوع من الفكر يتوازى محمود مع إقبال حيث قال الأخير:(١٧) [من المجتث]

مری نظر میں یہی ہے جمال و زیبائی
کہ سر بسجدہ ہیں قوت کے سامنے افلاک

[إنما الحسن والجمال – في نظري – هو كون الأرض والسماوات ساجدة للقوة القادرة (التي أودعها الخالق في الإنسان، فيقوم بذلك بالمحافظة على كيانه الأرضي، كما يمكنه إقامة التوازن مع الكون، وليس مجرد السطو عليه).]

هذا الصوت المتحمس والإيقاع المثير يتجلى بوضوح في قصائده الثلاث: الإيمان، وعنوان النشيد، والنشيد، وهي امتداد للحالة الواحدة التي اعترته في آونة متباعدة. كتب محمود "الإيمان" زهاء عام ١٩٢٧م، وهي أوجز هذه القصائد الثلاث، لكن قرقرة حمم البركان عند غليانها تُسمع من بعيد في هذه القصيدة الأولى. ثم يهدأ البركان لمدة عشرين سنة، وبعدها فجأة يمزق حجاب الصمت ويأخذ في الغليان بشدة فتسيل الحمم بحدة وكثافة أكثر من ذي قبل، وذلك في شكل قصيدة "عنوان النشيد". ثم يسود الصمت لعدة سنوات ينفجر بعدها البركان مرة أخرى في قصيدة "النشيد"، وبذلك تكمل دورة التنقية والتطهير عند الشاعر.(١٨)

ونشعر كأن الثورة المضطرمة والموهبة الإبداعية البادية في هذه القصائد تشق صدر الشاعر، فيخرج من كيان قرويٍّ مقعدٍ محبوس في العناصر الأربعة – كجنِّيٍّ مسجونٍ في القمقم، ثم خارجٍ – إلى أفق الحياة طاغيا عليه أمام أعيننا. ونعتبر الأبيات الثلاثة التالية من قصيدة "الإيمان" الكلمةَ المفتاح لما أبداه الشاعر من أفكار ونظريات في قصائده الثلاث، يقول: [من الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِيْ مَاذَا أَرَادَ بِنَا الْخَا لِقُ إِلَّا سِيَادَةَ الْأَكْوَانِ
لَا أَرَى آدَماً عَصَى اللهَ لَكِنْ شَاءَ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِالسُّلْطَانِ
يَكْرَهُ الْحُرُّ أَنْ يَعِيْشَ عَلَى السَّجْ نِ وَلَوْ كَانَ سَجْنُهُ فِي الْجِنَانِ

يستهل محمود قصيدة "عنوان النشيد" كالتالي: [من الرمل]

لَيْسَ كَالْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا فَضِيْلَةْ هَكَذَا قَالَتْ لَنَا الرُّوْحُ النَّبِيْلَةْ
قُلْتُ يَا رُوْحِيَ هَلْ ثَمَّ وَسِيْلَةْ لِتَلَافِي الضَّعْفِ وَالضَّعْفُ رَذِيْلَةْ

قَالَ إِلَّا فِيْ طُمُوْحِ الْكِبْرِيَاءْ
لَمْ أَجِدْ لِلضَّعْفِ فِي النَّاسِ دَوَاءْ

ويستمر فيقول:

يَا أَخِيْ، وَالرُّوْحُ يَعْنِيْ مَا يَقُوْلْ
لَيْسَ مِثْلَ الضَّعْفِ فِي الْأَرْضِ فُضُوْلْ

اِسْتَمِعْ لِيْ، إِنَّ مِنْ حَقِّ الْحَيَاةْ
لِلْفَتَى إِمَّا يَعِشْ عَيْشَ إِلَهْ
أَوْ يَمُتْ كَالصَّوْتِ لَمْ يُسْمَعْ صَدَاهْ

اِسْتَمِعْ لِيْ، إِنَّ قَانُوْنَ الْبَقَاءْ
وَهْوَ مَا فِي النَّاسِ يُدْعَى بِالْقَضَاءْ
قَدْ رَأَى فِيْ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءْ
أَنَّهُمْ فِي النَّاسِ جَاؤُوْا دُخَلَاءْ
كَالطُّفَيْلِيَّاتِ فِي الزَّرْعِ سَوَاءْ

أَنْتَ يَا إِنْسَانُ لِلْأَرْضِ الْمَلِكْ
كَيْفَ لَا تَحْكُمُ فِيْمَا تَمْتَلِكْ
بَيْنَمَا الدُّنْيَا جَمِيْعاً هِيَ لَكْ

آدَمٌ قَبْلَكَ بِالْأَرْضِ افْتُتِنْ
فَاشْتَرَاهَا بَائِعاً فِيْهَا عَدَنْ
يَا ضَعِيْفَ الرَّأْيِ، إِيَّاكَ تَظُنْ
أَنَّهُ أَسْرَفَ فِيْ هَذَا الثَّمَنْ

إِنَّهُ عَنْ قُوَّةِ الطَّبْعِ نَزَعْ
وَلِلِاسْتِقْلَالِ بِالْمُلْكِ ابْتَدَعْ

هذه القصيدة تحتوي على أربعة وستين مقطعا، صغيرا منها وطويلا، وهي تبدو كأنها شقت الحجر وخرقته في قوة وسطوة وروعة وجمال معا، كما أدهشت أصحاب عقول عظيمة وأذهلت ذوي أذهان واسعة الأفق في زمنها. وفيما رُوي عن العقاد أنه قال لمحمود متسائلا: "هل أنت نيتشه جديد؟"(١٩)، كما كتب مقالا عن هذه القصيدة بعنوان: "دين القوة"(٢٠). وكتب عبد المنعم شميس مقالا طويلا حول القصيدة باسم: "الإنسان ابن الثورة" (والعنوان مأخوذ من بعض كتابات أبي الوفاء نفسه)، وقارن بينها وبين قصيدة "المواكب" لجبران خليل جبران(٢١).

أما القصيدة الثالثة "النشيد" فهي طويلة كذلك واستمرار لتيار الوعي السابق نفسه. وفي هذه القصيدة يكسر محمود رتابة الحاضر ويتنبأ بمولد الإنسان الجديد ويرحب به في المدة الزمنية الشاملة أو الآن السرمدي، فيقول: [من الرمل]

لَيْسَتِ الثَّوْرَةُ مَا نَلْبَسُهُ مِنْ شِعَارَاتٍ حِسَانٍ أَوْ وُعُوْدْ
إِنَّمَا الثَّوْرَةُ مَا فَجَّرَهُ فِي الْكِيَانِ الْحُرِّ يَنْبُوْعُ الْوَرِيْدْ
لَسْتَ عِنْدِيْ ثَائِراً مَا لَمْ تَكُنْ طَلْقَةً مَقْذُوْفَةً مِنْ مِدْفَعِ
إِنَّنِيْ أَبْغِيْكَ فَصْلاً خَامِساً جَامِعاً كُلَّ الْفُصُوْلِ الْأَرْبَعِ

ومن هنا أصبح مصطلح "إنسان الفصل الخامس" معروفا عند الكتاب والقراء.

وهذه العاطفة القوية والرغبة الملحة – لاستبطان الإمكانيات المضمرة المستورة واستخدامها لتحقيق هدف التغيير الشامل لكيان الإنسان والطبيعة – بادية جلية فيما حث عليه الشاعر من تنقية الحياة الشعبية من التقاليد الرجعية القديمة، كما أنها واضحة بينة كذلك فيما يتعلق بما حمل عليه من جوب الآفاق وتسخير الكون. يقول محمود منتقدا أجهزة تعليمية مصرية: [من البسيط]

مَا خِلْتُ أَنَّ قُشُوْرَ الْعِلْمِ تَنْفَعُنَا إِلَّا إِذَا رَوِيَ الظَّمْآنُ بِالْآلِ
يَا قَوْمُ، إِنَّ تَآلِيْفَ الْأُلَى سَبَقُوْا شَابَتْ وَمَا نَفْعُنَا بِالْقِيْلِ وَالْقَالِ
وَمَا النِّظَامُ وَتِلْكَ الْكُتْبُ بَاقِيَةٌ إِلَّا كَوَشْيٍ عَلَى أَثْوَابِ أَسْمَالِ

وهذا اللون من شعر أبي الوفاء لا يتطلب بالضرورة أن نعتبر الشاعر مصلحا أو فيلسوفا، فنبحث في شعره عن نظام أو نسق فكري مرتب ومنضبط. بل الذي يلزمنا تجاهه أن نضع في الاعتبار أنه شاعر في المحل الأول. والشاعر ليس صورةً يتجمد فيها منظر ثابت. وإنما هو مرآة حيثما تضعها تعكس ما يتواجد أمامها من أشياء، محمودة كانت أو سيئة، كما تحتفظ بما يحيط بها من ظروف وملابسات. وأما الذي ينعكس في مرآة أبي الوفاء من صور وانعكاسات فإنما هي متعارضة متضادة

بعضها مع بعض كالحياة نفسها، وليست منتظمة وجوبيا ومتناسقة كالفلسفة. وهذا ما لا يُعتبر عيبا للشاعر البتة، وإنما هو خلل ونقص للفيلسوف. أما الشاعر الصادق فيحمل في نفسه إحساسا صادقا يعكس به ما يرى في مرآة فنه من نقص أو كمال أو غير ذلك مما ينعكس عنده من أمور الحياة المختلفة المتنوعة. وهو صدق فني قد يكون قولا مضادا متعارضا مع ما قاله سابقا أو لاحقا.

نجد في شعر أبي الوفاء أملا وعزيمة، ويأسا وقنوطا؛ محافظة على التقاليد، وتنفرا منها في الوقت نفسه. كما نرى عنده إحساسا بالجبر والإكراه، وتحمسا للقدر والخيار؛ وكذلك التزاما بنزعة دينية، وانتقادا على الديانة في الوقت ذاته. أما وحياته بعامة فظلت قائمة على الاعتدال في الغالب الكثير.

وعندما نرجع إلى مصدر شعري غزير تركه محمود أبو الوفاء لنتفرج على رؤية هذه الألوان المختلفة وما نتج عنها من صور وانعكاسات متنوعة، نرى عنده مستوى فردٍ بشريٍّ عام من جانب يتعاطف فيه مع المجتمع في معتقداته وتقاليده وأفراحه وأتراحه: مدائح نبوية؛ قصائد مدح فيها علي بن أبي طالب وصلاح الدين الأيوبي؛ أناشيد دينية للأطفال وأغان شعبية؛ قصائد في رثاء أحمد شوقي، هدى الشعراوي، سيد قطب، أمين الرافعي، وداود بركات؛ كل هذه القصائد تمثل هذا المستوى البشري العام في شعره. فمنها قصيدته بعنوان "أشواق" – من ديوانه بنفس العنوان – يقول فيها:[من الكامل]

يَا مَنْ تَجَلَّى النُّوْرُ فِيْكَ بِمَا أَسَرَّ وَأَعْلَنَا
فَجَلَا بِكَ الْإِنْسَانُ أَعْظَمَ مَا يَكُوْنُ تَكَوُّنَا
أَنَا مَنْ وَهَبْتُ مُحَمَّداً رُوْحِيْ وَجُثْمَانِيْ،أَنَا
لَمْ أَلْقَ غَيْرَ رِحَابِ حَضْرَتِهِ الزَّكِيَّةِ مَأْمَنَا

ويقول في قصيدة رثى بها سيد قطب: [من المجتث]

وَمَا ذَكَرْنَا عَظِيْماً		إِلَّا رَأَيْنَاكَ فِيْهِ
اَلْعَصْرُ إِنْ يَبْكِ شَخْصاً		فَأَنْتَ مَنْ يَبْكِيْهِ

قرض الشعر في رثاء شخص مغضوب عليه من قبل الحكومة يتطلب جرأة وهمة عاليتين.

كان أبو الوفاء يحب لغته حبا جما، حيثما يتكلمها الناس يعتبر تلك البقاع والمناطق وطنه. يقول: [من الكامل]

وَطَنِيْ هِيَ الْفُصْحَى فَكُلُّ بِلَادِنَا		فِيْ مِصْرَ أَوْ فِي الشَّامِ هُنَّ بِلَادِيْ
هَذَا هُوَ الْوَطَنُ الَّذِيْ أَحْيَا لَهُ		وَلَهُ أُوَالِيَ، صَادِقاً، أَوْ أُعَادِيْ

ولون آخر من شعره هو بيان إخفاقه في الحياة وسوء الحظ الذي مر به محمود كتجربة ذاتية مريرة، فيقول: [من الرمل]

لَوْ خَلَعْتُ الثَّوْبَ أَبْغِيْ غَسْلَهُ أَقْسَمَتْ شَمْسُ الضُّحَى لَمْ تَطْلُعِ
لَوْ طَلَبْتُ النَّهْرَ أَرْوِيْ ظَمَأً لَاشْتَكَى النَّهْرُ جَفَافَ الْمَنْبَعِ
وَلَوَ انِّيْ تَلْمُسُ التِّبْرَ يَدِيْ حَوَّلَ التِّبْرَ تُرَاباً إِصْبَعِيْ

يعتبر محمود نفسه غريبا في زمنه ويعتقد أن وجوده فيه قد ظهر في غير أوانه ومحله: [من البسيط]

كَأَنَّنِيْ فِكْرَةٌ فِيْ غَيْرِ بِيْئَتِهَا بَدَتْ فَلَمْ تَلْقَ فِيْهَا أَيَّ إِقْبَالِ
أَوْ أَنَّنِيْ جِئْتُ هَذَا الْكَوْنَ عَنْ غَلَطٍ فَضَاقَ بِيْ رَحْبَةُ الْمَأْهُوْلِ وَالْخَالِيْ

ترجم حافظ إبراهيم رواية ***Les-Miserables*** لفكتور هيوجو إلى العربية بعنوان: **البؤساء**. فنظم محمود قصيدة يخاطب فيها صاحب **البؤساء** (أي مؤلف الرواية): [من الكامل]

يَا صَاحِبَ الْبُؤَسَاءِ جَاءَكَ شَاعِرٌ يَشْكُوْ مِنَ الزَّمَنِ اللَّئِيْمِ الْعَاتِيْ
لَمْ يَكْفِهِ أَنِّيْ عَلَى عُكَّازَةٍ أَمْشِيْ فَحَطَّ الصَّخْرَ فِيْ طُرُقَاتِيْ

فماشيا على هذه الصخور أو أحجار عثرة، يحسب أبو الوفاء نفس كيانه مستهجنا مستكرها غير مرغوب فيه في أحايين كثيرة، فيعتبره عبئا ثقيلا على كواهل الوجود ذاته. كان أبو العلاء المعري قد اختار لنفسه العزوبية طوال الحياة وأوصى أن يُكتب على لوحة قبره هذا البيت التالي: [من الكامل]

هَذَا جَنَاهُ أَبِيْ عَلَـيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

أما أبو الوفاء فاختار أسلوبا أكثر حَرَافة ولذوعية عند مجابهته المرارة المريرة والقسوة القاسية في مصافِّ الحياة، فيقول شاكيا إلى أبيه: [من البسيط]

أَبِيْ، وَفِي النَّارِ مَثْوَى كُلِّ وَالِدَةٍ وَوَالِدٍ، أَنْجَبَا لِلْبُؤْسِ أَمْثَالِيْ
خَلَّفْتَنِيْ فَوَضَعْتَ الْحَبْلَ فِيْ عُنُقِيْ تَشُدُّهُ كَفُّ دَهْرٍ جِدِّ خَتَّالِ
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مِنْ غَيْرِ صَاحِبَةٍ قَضَيْتَ عُمْرَكَ شَأْنَ الزَّاهِدِ السَّالِيْ

ورغم أن محمودا كان يشعر في نفسه من جاذبية قوية تجاه جمال المرأة وحسنها كعادة إنسانية جبلية، وهو ما نجده عليه في كثير من قصائده، ولكنه جانب الزواج مجانبة وتهرَّب منه هروبا عن قصد. وعندما اضطرته ظروف حياتية ضاغطة أن يتزوج بامرأة ذات أطفال، أعلن أولا أنه لن ينجب ولدا من سلالته ويبقى غير متأب.

وعلى الرغم من عدم إيمانه بوضع الحدود وتعيينها من الناحية النظرية، فإنه كان يعاشر الناس في الحياة العملية عشرة طيبة، فيؤدي واجبه تجاههم بالنهوض بمهام الأمور بصورة فعلية. قد وجدنا

أسلوبه يحمل مرارة في طياته عندما خاطب أباه فيما يتعلق بالإنجاب والتناسل، ولكنها كانت فكرة طارئة ووجهة نظر فلسفية. أما حياته الميدانية العامة أو الخاصة فنراه في ذلك — مثلا – أنه يذهب إلى قريته مرتديا بدلة أنيقة لمؤاساة أمه الضريرة وجبرا لخاطرها، نافيا لما تناهى إلى سمعها مما روجوا من أخبار عن ابنها ومبددا ما أشاعوا عنه من شائعات فيما يتصل بمكانة محمود في الحياة وعيشه اليومي. كذلك لما وجد ربيبته نجوى عاجزة عن السماع والكلام بشكل مرثي له، أولاها أبو الوفاء كل عنايته وعطف عليها مكثّفا جهوده ببذل مصروفات باهظة لمعالجتها رغم إيراده القليل، إلى أن شُفيت، فاعتنى بتعليمها وتعهد تربيتها حتى كبرت وأصبحت ذات أطفال. كانت تدعو أبا الوفاء "بابا"، وقد تكلفت برعايته التامة في أواخر عمره(٢٢). ونجد في ديوانه أشواق بيتين قالهما في نجوى مناجيا: [من البسيط]

نَجْوَى، وَمَا أَنْتِ إِلَّا كُلُّ مُدَّخَرِيْ أَنْتِ الْحَيَاةُ وَأَنْتِ مَنْ أُتَاجِيْهَا
لَا شَيْءَ عِنْدِيْ سِوَى رُوْحِيْ، وَهَأَنَذَا مِنْ غَيْرِ مَنٍّ، إِلَيْكِ الْآنَ أُهْدِيْهَا

هناك قصائد في شعر أبي الوفاء مثل "القُبلة الأولى" التي تدل على الاتصال الجنسي ونشوة الطرب. وعنده أن الحياة مكتئبة عطشى وغير مكتملة بدون الاتحاد مع الصنف اللطيف، على الرغم من وجود نعم أخرى مترقبة أو غير مترقبة. وقد عبر محمود عن هذه الفكرة بشكل مرتجل وبصورة موحية في قصيدة "حلم العذارى" التي يخاطب فيها فتاة متدللة متغنجة قائلا: [من الرمل]

اِسْمَحِيْ لِي الْآنَ أَنْ أَسْـ ـأَلَ فِيْمَا تُفْكِرِيْنْ
أَبَوَاكِ لَا يَضِنَّا نِ بِشَيْءٍ تَطْلُبِيْنْ
كُلَّمَا أَحْبَبْتِ شَيْئاً مِنْ رَخِيْصٍ أَوْ ثَمِيْنْ
هُوَ مِنْ يُسْرَاكِ أَدْنَى مِنْهُ لِلْكَفِّ الْيَمِيْنْ
لَيْتَ شِعْرِيْ أَيُّ شَيْءٍ بَعْدُ ، فِيْهِ تُفْكِرِيْنْ
هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَا تَبْـ ـغِيْنَهَا تَبْغِيْ رِضَاكِ
اَلنُّجُوْمُ الزُّهْرُ وَدَّتْ أَنَّهَا بَعْضُ حُلَاكِ
وَشَذَا الزَّهْرِ تَمَنَّى أَنَّهُ كَانَ شَذَاكِ
وَشُعَاعُ الشَّمْسِ أَحْلَى مَا سَرَى خَلْفَ خُطَاكِ
ثُمَّ مَاذَا، لَيْتَ شِعْرِيْ أَنْتِ فِيْهِ تُفْكِرِيْنْ؟
خَبِّرِيْنِيْ أَيُّ شَيْءٍ تُفْكِرِيْنَهْ، خَبِّرِيْنْ
هَاهُمَا عَيْنَاكِ تُغْرِيْـ ـنِيْ عَلَى شَتَّى الظُّنُوْنْ

فِيْهِمَا بَحْرٌ وَمَوْجٌ وَسُهُوْلٌ وَحُزُوْنْ
وَوُضُوْحٌ وَغُمُوْضٌ وَاضْطِرَابٌ وَسُكُوْنْ
وَمَعَانٍ بَيِّنَاتٌ وَمَعَانٍ لَا تَبِيْنْ
وَتَهَاوِيْلُ فُنُوْنٍ مِنْ رَشَادٍ وَجُنُوْنْ
وَأَشِعَّاتٌ حَيَارَى مِنْ مُنًى أَوْ مِنْ حَنِيْنْ
لَيْتَ شِعْرِيْ، أَيُّ سِرٍّ خَلْفَ هَاتِيْكَ الْجُفُوْنْ
آهِ، إِنَّ السِّرَّ أَنْبَا عَنْهُ ذَانِ الطَّائِرَانْ
حِيْنَمَا مَالَا عَلَى غُصْ نَيْهِمَا يَعْتَنِقَانْ

أما وقصيدة "حديقة" فتنم على كلف محمود وشغفه بجمال الطبيعة، وقد رسم فيها من صور للزهور والطيور في أسلوب جد خلاب وأخاذ. يقول: [من الكامل]

أَمَّا الْبَنَفْسَجُ فَهْوَ هَا دِي الرُّوْحِ يُعْجِبُهُ السُّكُوْنْ
لَا يَسْتَخِفُّ إِلَى التَّبَا هِيْ فِي الْحَيَاةِ وَلَا الْمُجُوْنْ
كَالشَّيْخِ أَوْ كَالْفَيْلَسُوْ فِ جَمَالُ رَوْنَقِهِ شُئُوْنْ
وَلِكُلِّ نَوْعٍ بَيْنَ هَـ ـذَا الزَّهْرِ نَاسٌ يُشْبِهُوْنْ

اَلطَّيْرُ مِنْ فَوْقِ الْغُصُوْ نِ كَأَنَّهَا ثَمَرُ الْغُصُوْنْ
كَالْحُوْرِ فِيْ حُلَلِ الْجِنَا نِ السُّنْدُسِيَّةِ يَرْفُلُوْنْ
يَتَرَاقَصُوْنَ عَلَى الْغُصُوْ نِ وَيَطْرَبُوْنَ فَيَهْزَجُوْنْ
فَكَأَنَّهُنَّ مِنَ الْمَلَا ئِكَةِ الْكِرَامِ مُقَرَّبُوْنْ
أَوْ هُنَّ أَرْوَاحٌ تُقًا ةٌ فِي الْجِنَانِ مُجَنَّحُوْنْ

وقصيدة أخرى مسماة "من الأعماق" تطلعنا على ما يعتقده محمود من سيادة وسلطان الحب وسيطرته على كل الرغبات والمطامع الأخرى في الحياة، فيندفع إليه خارجا من الحدود الدينية والعقائدية. يقول: [من الكامل]

مَا لِلنَّصَارَى فِيْ كَنَا ئِسَ وَالْحَنَائِفِ فِيْ مَسَاجِدْ
مَا لِلرَّوَاشِدِ مَا لَهُمْ لَا يَصْهَرُوْنَ مَعَ الرَّوَاشِدْ
أَوَ لَيْسَ آدَمُ وَاحِداً أَوَ لَيْسَ دِيْنُ اللهِ وَاحِدْ
لِمَ لَا يَكُوْنُ الْحُبُّ، وَهْـ ـوَ الْأَصْلُ، رَائِدَ كُلِّ رَائِدْ

مَنْ فَكَّ بَيْنَ عُرَى الْقُلُوْ بِ وَشَدَّ مِنْ عُقَدِ الْعَقَائِدْ

وهناك قصائد أخرى من هذا النوع توقفنا على نفس هذه الميول والنزعات عند محمود أبي الوفاء، لكنها تطرح أفكارا مجردة تمنح الشاعر نظرة المفكر أو تخلع عليه طيلسان الفيلسوف، ولكنه لم يكن ذلك إلا مؤقتا. وما عدا ذلك فإنه ينسجم مع الناس في المجتمع متأقلما مع ما هم عليه من تقاليد ومعتقدات دينية وطقوس وعادات شعبية. وقد أوضح محمود نفسه هذا الموقف الثنائي النزعة في بعض قصائده الأخيرة: [من البسيط]

لِلهِ مُسْتَغْفِراً لِلهِ مُعْتَذِرَا مِمَّا لَهَوْتُ بِهِ أَوْ قُلْتُهُ ضَجَرا
اَللّٰهُ يَشْهَدُ أَنِّيْ لَمْ أَكُنْ أَبَداً فِيْ أَيِّ يَوْمٍ بِفَنِّ الْقَوْلِ مُتَّجَرَا
مَا قُلْتُهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَدًى بِدَمِيْ إِمَّا اسْتَجَبْتُ لَهُ أَوْ فِيْ دَمِي انْفَجَرَا

للإنسانية عند محمود منزلة عالية ومكانة مرموقة، كما أنه يعشق الحرية التامة، ويقف موقف مناهض لمن يحول دونها ويعرقل السبيل إليها: [من البسيط]

حَسْبِيْ إِذَا الْحُبُّ أَضْنَانِيْ فَمِتُّ هَوًى إِنْ يَذْكُرُوْنِيْ، قَالُوْا: كَانَ إِنْسَانَا

هَاجَ الْجَوَادُ فَعَضَّتْهُ شَكِيْمَتُهُ شُلَّتْ أَنَامِلُ صُنَّاعِ الشَّكِيْمَاتِ

يعتبر محمود الفن روح الحياة. فالفن عنده بساطة إنسانية ومؤاساة قلبية. يقول في قصيدته "قلب الفنان" عن الفنان الصادق بكلمات معبرة وموحية: [من البسيط]

أَمْشِيْ وَقَلْبِيْ عَلَى كَفِّيْ أَقُوْلُ أَلَا مِنْ رَاغِبٍ فِيْ فُؤَادٍ صَادِقٍ حَانِ
يُحِبُّ حَتَّى كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا إِلَّا زَنَابِقُ مِنْ آسٍ وَسُوْسَانِ
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بُغْضٍ وَلَا إِحَنٍ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مِنْ ظُلْمٍ وَطُغْيَانِ
فَلَا وَرَبِّكَ، هَذَا الْقَلْبُ مَا الْتَفَتَتْ عَيْنٌ إِلَيْهِ، فَيَا لِلْبَائِسِ الْعَانِيْ
قَدْ عَادَ يُنْكِرُنِيْ قَلْبِيْ وَأُنْكِرُهُ حَيْرَانُ، فِي التِّيْهِ، يَمْشِيْ خَلْفَ حَيْرَانِ
لَمْ أَلْقَ كَالْفَنِّ تَنْوِيْهاً لِصَاحِبِهِ وَلَيْسَ كَالْفَنِّ فِيْ تَكْرِيْمِ فَنَّانِ
اَلْفَنُّ كَالرُّوْحِ فِيْ شَتَّى مَظَاهِرِهِ تَفْنَى الْجُسُوْمُ وَلَيْسَ الْفَنُّ بِالْفَانِيْ

رأينا محمودا قد وُفق في التعبير عن كل هذه الألوان والمضامين المختلفة المتنوعة التي وجدناها في شعره. لكن الذي نعتبره أقوي فيه وأوفق مما قرض من الشعر هو ما ينسجم معه مما يحمل في داخله من فكرة الاتحاد مع الظواهر الطبيعية التي عبر عن حسنها وجمالها الذي ضمه إلى الحزن والأسى؛ والذي لا ينطوي على رسالة القوة، ولا على فكرة معينه من أفكار فلسفية أخرى عن الحياة، كما لا يشتمل على النقد والإصلاح أيضا. فقصيدة "عاشقة القمر"، التي ذكرناها في بداية هذا المقال، تمثل نزعة الاتحاد والانسجام مع الطبيعة. ونحبذ البروفيسور آربري ونستحسن اختياره لهذه القصيدة من الشعر

العربي الحديث وأخرى "عندما يأتي المساء" من قرض محمود أبي الوفاء نفسه. وقد غنى هاتين القصيدتين مغنيان كبيران من مطربي مصر، فتلقاهما الناس بحسن القبول خاصة وعامة. غنى محمد عبد الوهاب قصيدة "عندما يأتي المساء" عام ١٩٣٨م لفيلم "يحيا الحب". أما "عاشقة القمر" فغناها رياض السنباطي عبر الأثير من "راديو لندن" عام ١٩٤٠م، فاشتهرت بأول شطر فيها "يا نجمةً في سَنَاكِ". وقد غناها السنباطي مرة ثانية مع تلحين أكثر نضجا من السابق. وبإمكانك أن تجد الأغنيتين على الإنترنت. أما هنا في نهاية المقال فنثبت كلماتهما كما وجدناها في ديوان أنفاس محترقة وأشواق على التوالي: [من الرمل/ المجتث]

عندما يأتي المساء

عِنْدَمَا يَأْتِي الْمَسَاءْ وَنُجُوْمُ اللَّيْلِ تُنْثَرْ
اِسْأَلُوْا لِي اللَّيْلَ عَنْ نَجْـ ـمِيْ مَتَى نَجْمِيَ يَظْهَرْ

عِنْدَمَا تَبْدُو نُجُوْمٌ فِي السَّمَا مِثْلَ اللَّآلِيْ
اِسْأَلُوْا هَلْ مِنْ حَبِيْبٍ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِحَالِيْ

كُلُّ نَجْمٍ رَاحَ فِي اللَّيْـ ـلِ بِنَجْمٍ يَتَنَوَّرْ
غَيْرَ قَلْبِيْ فَهْوَ مَازَا لَ عَلَى الْأُفْقِ مُحَيَّرْ

يَا حَبِيْبِيْ لَكَ رُوْحِيْ لَكَ مَا شِئْتَ وَأَكْثَرْ
إِنَّ رُوْحِيْ خَيْرُ أُفْقٍ فِيْهِ أَنْوَارُكَ تَظْهَرْ

كُلَّمَا وَجَّهْتُ عَيْنِيْ نَحْوَ لَمَّاحِ الْمُحَيَّا
لَمْ أَجِدْ فِي الْأُفْقِ نَجْماً وَاحِداً يَرْنُوْ إِلَيَّا

هَلْ تُرَى يَا لَيْلُ أَحْظَى مِنْكَ بِالْعَطْفِ عَلَيَّا
فَأُغَنِّيْ وَحَبِيْبِيْ وَالْمُنَى بَيْنَ يَدَيَّا

عاشقة القمر

نجمة في السماء، كثيراما رأيتها تتجه إلى القمر، حتى حسبتها تعشقه. فإلى العيون الساهرة، وإلى القلوب الحائرة، أهدي أغنية الزهرة...

يَا نَجْمَةً فِيْ سَنَاكِ ذَهِلْتُ عَنْ كُلِّ نَجْمِ
هَوَايَ نَفْسُ هَوَاكِ فَهَلْ تُرَى أَنْتِ نَجْمِيْ

يَا نَجْمَتِيْ خَبِّرِيْنْ بِسِرٍّ مَا تَطْلُبِيْنْ
اَلْبَدْرُ لَمْ يَبْدُ يَوْماً إِلَّا لَهُ تَتْبَعِيْنْ
لَلْبَدْرِ هَلْ تَعْشَقِيْنْ

لَمْ أَدْرِ كَيْفَ عَشِقْتِ وَأَنْتِ فِي الْحُسْنِ أَنْتِ
أَوَّاهُ ، مَاذَا جَنَيْت فِي الْقُرْبِ لَا تَطْمَعِيْنْ
فِي الْبُعْدِ لَا تَيْأَسِيْنْ

مِسْكِيْنَةٌ فِيْ هَوَاكِ عَشِقْتِ مَنْ لَا يَرَاكِ
سَنَاهُ غَشَّى سَنَاكِ وَيْلَاهُ، مَا تَصْنَعِيْنْ
يَا طُوْلَ مَا تَسْهَرِيْنْ

يَا زَهْرَةً لِلسَّمَاءْ خُطِّيْ لَنَا بِالضِّيَاءْ
فِي الْحُبِّ مَعْنَى الرَّجَاءْ وَعَلِّمِي الْعَاشِقِيْنْ
أَنَّ الْمَحَبَّةَ دِيْنْ

يَا نَجْمَتِيْ أَنَا مِنْكِ وَأَنْتِ مَنِّيْ مِثَالْ
أَنَا وَأَنْتِ كِلَانَا نَجْرِيْ وَرَاءَ الْخَيَالْ
نَجْرِيْ وَرَاءَ الْمُحَالْ طَوْعاً لِأَمْرِ الْإِلَهْ
لَوْ لَا الْهَوَى وَالْجَمَالْ مَا بَانَ سِرُّ الْحَيَاهْ

☆☆☆☆☆

الهوامش

(١) انظر: جريدة **الأهرام**، ١/ فيبراير ٢٠٢٢م (سنة ١٤٦، عدد ٤٩٣٦٥)، تقرير إبراهيم العشماوي الذي أعده بعد زيارة قرية أبي الوفاء والذي يشتمل أيضا على تصريحات ابني أخيه الهادي وشريف.

(٢) نقل فتحي سعيد على لسان أبي الوفاء نفسه: "نعم إلى عاصمة النور للعلاج على نفقة الدولة ... كان ثمة أمل في ساقي التي بُترت نتيجة مرض وليس بسبب حادث." فتحي سعيد، **أبو الوفاء: رحلة الشعر والذكريات**، دار المعارف، مصر، في سلسلة "كتابك" (٧٥م) تحت رئاسة أنيس منصور، ١٩٧٩م، ص٢٨. وليس بصحيح ما جاء على الإنترنت في موسوعة ويكيبيديا، في مقال عن محمود أبي الوفاء، أن ساقه تكسرت وهو يلعب كرة القدم مع أقرانه، ثم بُترت بسبب غرغرينا (Gangrene).

(٣) المرجع السابق، ص٣٤، "بُترت ساقه ومات والده في يوم واحد معا". على ذلك فلا نصدِّق ما قيل إن والده تُوفي قبل بتر ساقه بسنوات. يؤكد الدكتور محمد الجوادي في مقال له على الإنترنت أن ساق أبي الوفاء بُترت قبل موت والده. انظر لمقال الجوادي الموقع التالي:
https://www.aljazeera.net/blogs/2020/7/4/ الشاعر-محمود-أبو-الوفا-عندما-لا-يأتي

(٤) **ويكيبيديا**، محمود أبو الوفاء.

(٥) فتحي سعيد، ص٢٢.

(٦) محمد الجوادي، المقال المذكور.

(٧) فتحي سعيد، ص٢٣.

(٨) انظر: محمود أبو الوفاء: **دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م، ص٤٧٤.

(٩) طه حسين، **حديث الأربعاء**، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م، (الأجزاء الثلاثة في مجلد واحد)، ص٧٥٩، (الفصل٢٧)؛ دواوين ودراسات، ص٤٥٢.

(١٠) **دواوين ودراسات**، ص٤٦٨-٤٧٠، (ضمن تعليق على حديث مي المستطرد لوديع فلسطين).

(١١) فتحي سعيد، ص ٢.

(١٢) **الأهرام**، العدد المذكور.

(١٣) فتحي سعيد، ص١٥.

(١٤) انظر للتفصيل: ***http://www.wata.cc/forums/showthread.php?75286***
مقال د. سمير رجب سليم، زواج الشاعر محمود أبو الوفاء. (World Association of Arab Translators & Linguists) (Forum Wata

(١٥) **الأهرام**، العدد المذكور.

(١٦) **دواوين ودراسات**، ص٧٢ وبعدها.

(١٧) محمد إقبال، **ضربِ كليم**، ترجمة: عبد الواب عزام، (ضرب الكليم)، مؤسسة هنداوي، وندسور، المملكة المتحدة، ٢٠١٤م، ص٩١.

(١٨) المرجع السابق، ص٣٧ وما بعدها.

(١٩) محمد الجوادي، المقال المذكور.

(٢٠) **دواوين ودراسات**، ص٤٢٩ وما بعدها.

(٢١) عبد المنعم شُمَيس، الإنسان ابن الثورة، مجلة **الثقافة**، (أبوحديد)، ثلاث حلقات، يناير–مارس، ١٩٦٤م.

(٢٢) محمد الجوادي، المقال المذكور.

BIBLIOGRAPHY

- Fathi Saeed, *Abu al-Vafa: Rehlatul Sha'r wa al-Zakariyat*, (Egpt: Darul Ma'rif, 1979).
- http:\\www.wata.cc\forums\showthread.php?75286
- https://www.aljazeera.net/blogs/2020/7/4/
- Mehmood Abu al-Wafa, *Davavain Sh'ruhu wa Dirasat Be-Aqlam Mu'asria*, (Egipt: 2009)
- Muhammad Iqbal, *Zab-e Kalīm*, (Trans.) Abdul Wahab Azaam, (Mu'ssa'sa Hindnavi, 2014)
- Newspaper , *Al-Ihram*, Feb 2022, No. 146-49365